جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط

محمد بن أحمد العقيلى

أولا : المعلومات الجغرافية قبل اليونان

يظهر - وإن كان لايوجد الدليل - أن الفينيقيين هم أول من وضع أو أسهم ولو بوضع الخطوط الأولى فى علم الجغرافيا ، يهتدى إلى ذلك من معرفة رحلاتهم البحرية ، ونشاطهم التجارى .

فالفينيقيون هم من عرفوا بترويضهم للبحار فى أسفار موسمية ، وركوبهم أثباج الأمواج ، ومسحهم الشواطىء جيئة وذهابا ، واقتحموا الصعاب . واتخذوا من البحر الأبيض مجالاً حيويا ، وقبله من الخليج العربى ، والبحر الأحمر . قبل انتقالهم من الخليج إلى لبنان ، وتسميتهم مدن مهجرهم الجديد بأسماء مدنهم فى الخليج ، كصور و(الجبيل) وغيرهما . منذ ما يقارب خمسة وثلاثين قرنا .

كانت مدينة صور عاصمتهم وقاعدة تجارتهم ، يصلون إليها بمحاصيل أقطار العالم ، ومنتوجات الدنيا ومن صور توزع على الأسواق تجارياً ، وتتداول اقتصاديا ، بين الهند وشمال أفريقيا ، وبين بلاد العرب السعيدة موطن البخور إلى بلاد اليونان شمالا .

من فوائد تلك الرحلات ، ومن نتائج مغامرتهم الجريئة ، وأسفارهم التجارية الناجحة ، استفادوا علميا باختباراتهم وتجاربهم ، واقتصاديا بتبادل المنتوجات وجلب السلع والعروض ، فأصبحوا دهاقين التجارة ، وسادة البحار .

فنمت معلوماتهم بخطوط المواصلات البحرية والمسالك العالمية ، وأحوال الأمم - المعروفة آنذاك ومعرفة المدن ، والمسافات بين البلدان ، وأنسب الفصول للأسفار ، ومواسم هبوب الرياح واتجاهاتها والاستدلال بمعرفة النجوم وغير ذلك .

فاتقنوا فن الملاحة ، مما مكنهم من معرفة عالم عصرهم ، ودنيا عهدهم ، والسيطرة على التجارة حتى حطمهم الرومان وتفردوا بالسيطرة - كما هو معروف .

ولا يبعد أن يكون للبابليين والأشوريين والحيثيين مع ما وصلوا إليه من شأو حضارى بعض المعلومات الجغرافية ، وإن كان شأنها أقل بكثير من المعلومات الفينيقية ، والتى يقال:إن بعضها وصل إلى اليونان .

ثانيا اليونان والجغرافيا

بعد نحو ما يقارب ألف سنة من عهد النبى موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، أهل العهد اليونانى ، الذى عاش فيه شاعر اليونان الكبير (هومير) الذى نظم معلوماته الجغرافية فى ملحمته المشهورة (الإلياذة) .

ظل اليونان على تلك المعلومات الضحلة ، حتى ظهور مؤرخهم هيرودت فى سنة ٤٨٤ ق . م وبعد استكمال دراسته قام برحلاته ـ المعروفة ـ إلى ممالك عصره ، فزار ضمن ما زاره من البلاد (مصر) وسجل معلوماته عن البلاد التى زارها ومنها مصر التى أفاد عنها بمعلومات جيدة .

واليونان هم بدورهم - أيضا - جعلوا من البحر الأبيض نقطة إرتكاز، ومجالاً حيوياً لنشاطهم التجارى والسياسى ، وامتد نشاطهم الملاحى إلى البحر الأحمر لتجارة البخور وغيره .

ومن ما وصل إليهم بالرواية حتى عن الفينيقيين ، ومن أخبار روادهم الأوائل ، ومما جاء فى الإلياذة تكونت معلوماتهم الأولية التى كانت أساسا لدراسة الجغرافيا .

ثالثا : حملة الإسكندر لفتح العالم

فى سنة ٣٣٤ ق . م تقدم الإسكندر بحملته المشهورة ، وكان بصحبته رجال من العلماء والمؤرخين والجغرافيين وغيرهم فاشتغل كل منهم فى دائرة اختصاصه .

ومن حصيلة جهودهم منذ خروجهم إلى أن وصلوا الهند ، ومن المعلومات التى جمعها المختصون عن أساطيله تجمعت حقائق ومعلومات عن البلاد التى شملتها فتوحاته .

وكان لخلفائه وبالأخص البطالسة، شغف علمى دفعهم إلى العناية بجمع المعلومات

الجغرافية عن شواطىء البحر الأحمر والحبشة ، أضيفت إلى معلوماتهم السابقة ومعلومات رجال حملة الإسكندر .

من كل تلك المعلومات المتفرقة قام (اراتستين) اليونانى المتوفى سنة١٩٦ق.م فى عصر البطالسة بتأليف كتاب سجل فيه كل ما وصل إلى علمه وعما يروى عن الفينيقيين وعن الرواد الأوائل وما سجله (هيرودت) ، وما جاء عن معلومات علماء حملة الإسكندر وغيرهم .

وجاء بعده الرحالة (استرابون) والجغرافى (بلينيوس) وسجلا ما وصل إلى علم كل منهم ، وقد كتب البقاء لكتاب الرحالة (استرابون) إلى هذا التاريخ .

وفى أواسط القرن الثانى ألف بطليموس كتابه الخالد (جغرافيا) أو (الجغرافيا) فحدد المدن وغيرها بالحسابات الفلكية ، والطرق الرياضية ، ورسم الخرائط المتقنة على خطوط الطول والعرض .

رابعا : الرومان والجغرافيا

من المعروف ما بلغ إليه سلطان روما واتساع امبراطوريتها ، وما شملته فى الثلاث القارات ، وما يتطلب ذلك من معلومات جغرافية ، بمعرفة مناطقها ، ومدنها ، ومسافاتها ، والطرق المؤدية إليها ، وطبيعة كل منطقة وموقعها ، الأمر الذى استدعى من الدولة الاهتمام بالمعلومات الجغرافية ، والتشجيع على جمعها ، والأخذ بيد المؤلفين .

وكان أكثر معلومات الرومان مستقاة من التجارة وقوافلها ، أو مراكبها ، فمعلوماتهم بالطرق التجارية الرئيسية والأكثر أهمية ـ بالنسبة إليها ـ تجاريا وحربيا ، والأمم التى حولها ، والشعوب الأكثر ارتباطاً ومصالح تجارية بها ، معلومات صحيحة فى الغالب .

إن ترامى أقطار تلك الإمبراطورية وتنوعات محاصيلها ، ووفرة انتاجاتها ، جعلتها تقرب من الاكتفاء الذاتى ، إلا ماندر ، فكانت لاتستورد من الخارج إلا وسائل الترف ، أو المواد الكمالية ، ومنها العنبر ، الذى كانت له سوق نافقة ، فيجلب إليها من شواطىء البلطيك ، ويرسل إلى مناطق البحر المتوسط ، فى طريق تقطع نهر الدانوب ، ومنه تدور حول مرتفعات الألب الشرقية ، فالبحر الأدرياتى .

فتوفرت لديها معلومات عن أوروبا مستقاة من تجار تلك المادة . ووفرة المال . وبذخ أشراف روما يتطلب الحصول على الأحجار الكريمة ، والطيوب ، والعاج ، والبخور ، والمنسوجات الرفيعة ، وهى مواد ومنتوجات مصدرها الهند ، وعدن من البلاد العربية ، وبعد ذلك الحرير والورق من منتوجات الصين ـ وروما تتقاضى رسوما جمركية على كل تلك السلع تعد من مواردها الرئيسية ، وذلك يستدعى حراسة الحدود . برا وبحرا ، فضلاً عما يقتضيه موقفها العالمى كامبراطورية ، كل ذلك يستوجب سواء فى الدوائر الرسمية ، أم من الباحثين ما يلقى التشجيع ، ومع كل ذلك فإنه يغلب عليه الطابع الاقتصادى والسياسى أكثر من غلبة الطابع العلمى .

لما سبق حرصوا على معرفة طريق الهند عبر المحيط الإطلنطى ، متحاشين بقدر المستطاع الابتعاد عن الساحل خشية القراصنة ، وقد يقول قائل ـ إن طريق المحيط إلى الهند لم يكتشفها إلا (فاسكودى جاما) ، سنة١٤٩٨ م بإرشاد الربان العربى ابن ماجد ، فنقول له : إن المعارف الجغرافية اليونانية والرومانية ، قد أسدل عليها الجهل الأوروبى حجباً كثيفة فتوارت فى ظلام النسيان ومهامه الإهمال ، ولم تعد تلك المعارف إلى أوروبا ثانية إلا بفضل المسلمين فترجمها الأروبيون من العربية بعد أن أتموا تحصيلهم العلمى فى طليطلة ، وقرطبة وغيرها .

لقد كان السفر من (عدن) إلى الهند للأساطيل التجارية الرومانية يستغرق مدة ثلاث سنوات إيابا وذهابا وشغف أغنياء وأشراف روما بمنتوجات الهند من المنسوجات المفضضة والمذهبة والعطور والأحجار الكريمة واللؤلؤ ، والأفاويه ـ وبالأخص (الفلفل) وما يدره من الأرباح الجزيلة تغرى بتحمل تلك المشاق . فظلوا على تلك الحال ، حتى تمكن بحار جرىء يسمى (هيبالوس) بذكائه الخارق ، من اكتشاف موسم هبوب الرياح الموسمية التى تدفع مركبه إلى الهند ، والعكس ، فكان ذلك اكتشافا له أهميته القصوى بالنسبة إلى عصره بحيث اختصر المدة إلى اثنى عشر شهرا ذهابا وإيابا . فازدهرت التجارة بين الهند وروما .

وبذلك استطاع رائد علم الجغرافيا (بطليموس) فى عهد الإمبراطور (هدريان) أن يحصل على معلومات جديدة ومفيدة عن الهند والبلاد التى وراءها .

وأتى بعد ذلك اهتمام الرومان بالتجارة مع الصين عبر آسيا الصغرى ، وجبال التركستان ،

الذى كان المحتكر الوحيد لإنتاج الحرير من نسيج دودة القز .

ومن عهد الإمبراطور (يوليوس قيصر) أصبح الحرير مادة الحصول على الأرباح الطائلة والمال الوفير لايدرها أى شيء آخر فى أوروبا بأسرها .

فسار الاتجار مع الصين إلى القرن السادس وبعدها تمكن الرومان من إغراء بعض المجازفين بجلب دودة القز إلى القسطنطينية ، وبذلك تمكنوا من تصنيعه ، وهكذا كانت التجارة وسيلة الرومان للمعلومات الجغرافية .

خامسا : الجغرافيا عند العرب

الشعر بالنسبة إلى العرب أولاً ، والمسلمين ثانياً ، هو المادة الأولى لعلم الجغرافيا ، أو بالأصح علم تقويم البلدان .

لقد تضمن الشعر الكثير من أسماء الأماكن والمعالم والرياض ، والمنتجعات والمراعى ، والجبال ، والأودية والغدران والبلدان وموارد المياه .

كان العربى يسجل مشاعره فى شعر رفيع وبيان مشرق نحو مهاد طفولته ومراتع صباه ومواضع لهوه ولعبه ومسارح أنعامه ومواقع غزواته ، وميادين معاركه . فى شعر ينبض بالأحاسيس ويشع بدفء العواطف ، ويجيش بأسمى المشاعر .

وفى شعر الأعشى الشاعر الجوال ، الذى كان يجوب أنحاء الجزيرة ، من مشارف حضرموت ، إلى أقاصى الشام ما يعرفه الجميع .

وفى المعلقات السبع ، أو العشر ـ على رأى البعض ـ مادة غنية بما يسمى بالجغرافيا الوصفية ، فهذا امرؤ القيس يقول فى مستهل معلقته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فذكر ثلاثة مواضع وهى (سقط اللوى ـ الدخول ـ حومل) فى بيت واحد .

إلى أن يقول :

أصَاحِ تَرَى برقاً أريك وميضَه   كلمعِ اليدين فى حَبِى مكلل

قعدَتُ وأصحابِى له بين (ضَارِج)   وبين (العُذَيْبِ بعدَ ما مُتَأمَّلِ

على قَطَن بالشَّيْم ايمُن صَوْبه   وأيْسَرُهُ على الستار و(يذبُل)

فأضحى يُسُحُّ الماءَ حولَ (كتيفَة) يكب على الأذقان دوح (الكَنَهْبَل)
ومرّ على (القنان) من نَفَيَانه فأنزلَ منه العُصْمَ من كل منزل
و(تيماءَ) لم يترك بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ولا أُطُماً إلا مَشيداً بجندلِ

فقد ذكر فى الستة الأبيات أسماء (ضارج) و (العذيب) وجبال (قطن ـ الستار ـ يذبل) ومواضع (كتيفة ـ القنان ـ تيماء) .

وهذا (زهير بن أبى سلمى) يقول فى معلقته :

تبصر خليلى هل ترى من ضَعَائن تَحَمَّلْنَ بالعَلياء من فوق « جُرْثُمِ »
جعلن القَنانَ عن يمين وحَزْنَهُ وكم بالقنانِ من مُحِلٍ ومُحْرِمِ
وَوَرَّكْنَ بـ (السُّوبان) ثم جَزَعْنَهُ عليهن دلُّ الناعم المتنعم
بكرن بكوراً واستحْرنَ بِسُحْرَةٍ فهن ووادى (الرسَّ) كاليدِ للفم

وعنترة العبسى يحدد لنا محلة محبوبته (عبلة) ومنتجع قومه فيقول :

وَتَحُلُّ (عبلةُ) بـ (الجَواء) وأهلُنا بالحَزْنِ فـ (الصَّمّانِ) فالمُتَثَلَّمِ

وجاء دور الأسواق العربية ، من دومة الجندل ـ فى شمال مملكتنا إلى (عثر) فى جنوبها ، إلى أسواق جنوب جزيرتنا العربية ، فاقتضت الرحلات والنشاط التجارى فى مواسم معروفة ، من التجار والمتسوقين ، ثم قوافل التجارة بين الشرق والغرب ، وهى تقطع الجزيرة من مواطن البخور والطيوب إلى فارس وأقاصى الشام وآسيا الصغرى ، وفى البحر تجتاز التجارة العربية إلى الحبشة ، وأيضا إلى الهند . وكانت بعض القوافل تبلغ إلى ثلاثة آلاف جمل .

وكان للحج قدسيته فى الجاهلية ، عند العرب ، فيحج إليه من أنحاء الجزيرة ، كل ذلك أسهم فى معارف العرب الجغرافية عن جزيرتهم وما حولها .

وجاء الإسلام بنوره الساطع وهديه القويم ، وفرقانه المبين الذى لا يأتيه الباطل ، جاء لهداية العالمين ، وقص سبحانه وتعالى أحوال الأمم الماضية والحضارة البائدة ، والمدن المندثرة والباقية ، ما فيه ذكرى وعبرة وعِظَة ، فاستنارت البصائر واتسعت المدارك .

وكان لغزوات النبى صلى الله عليه وسلم ، وسراياه الريادة الأولى لتعرف المسلمين على معلومات جديدة بالنسبة لما سبق ، فمن هجرة إلى الحبشة إلى غزوات فى شرق الجزيرة

وشمالها ، ثم إلى جنوبها ، وكان لا يطرقها أحد منهم فضلا عن أن تغزى ، إلا بدليل أو صاحب .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة استصحب معه دليلاً ، وجاء دور البعوث ، والوفود فَسلكت السُبل وتسهلت الطرق ، التى كان قل من يسلُكها .

وكانت السنة العاشرة للهجرة (عام الوفود) فأقبلت وفود العرب من أرجاء جزيرتهم إلى المدينة من كل صقع وصوب ، معلنة إسلامها ، فاتسعت آفاق المعرفة وترسخت المعارف ، فإن الرحلات على الركاب والخيل ، مع الحل والترحال تتيح للمسافر المشاهدة والمعاينة .

والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم - كما تُروى سيرهم - لايبعثون بعثاً ، أو يرسلون جيشاً إلا بعد أن يسألوا عن الطريق الذي سوف يسلكونه والبلاد التى ستغزى[1] .

وفرض الله الحج على المسلمين فى سنة ست - عند الجمهور ، واختار ابن (القيم) فى الهدى أنه فرض سنة تسع أو عشر وفيه خلاف - وبعد فتح مكة أقبل المسلمون على الحج ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وساد الأمن ، وانتشر الإسلام وأقبلت وفود الحجاج ، فأضيف رصيد أثرى المعارف الجغرافية .

وجاء دور الفتوح ، فى عهد الخليفة الأول ، فاستنفر أبناء الجزيرة العربية ، فأقبل مجاهدوها من جميع الأقطار إلى مركز التجمع فى عاصمة الإسلام ، فسيرهم صوب العراق والشام وفلسطين ، وهى أقطار كان لا يصلها إلا التجار أو الممتار فى أعداد محدودة ، مشتغلين بما وصلوا لأجله ، ليس إلا .

أما هذه الجموع والحشود ، من جيوش المسلمين الذين همهم الأول إعلاء كلمة الله ثم معرفة البلاد التى يفتحونها أولاً ويستوطنونها ثانيا ، فيقتضيهم الحال كفاتحين ترسيخ المعرفة بأرضها وجبالها وسهولها ، وأنهارها ووديانها ودروبها ، وبيئتها وطبائع أهلها .

ودخل الناس من أهل البلاد المفتوحة فى دين الإسلام ، وأقبلوا لأداء فريضة الحج أو الاتصال بعاصمة الإسلام لشتى الأغراض ، واحتاجت الخلافة لتأمين طرق المواصلات ولإرسال الإمدادات والمؤن واستقبال الخراج واتصالات البريد ، فتجمعت المعلومات الجغرافية من جراء ذلك ، من أخبار الغزاة ، ورواية الإخباريين والقصاص وغيرهم ، ومن علم الأمم التى شملهم الفتح ، فأصبحت معارف المسلمين تتعدى محيط جزيرتهم إلى العراق ، وفارس ،

والشام ، ومصر ، فليبيا ، والمغرب ، وما انتهى عهد الخلفاء الراشدين إلا وهناك معلومات جغرافية عن تلك الأقطار التى فتحت فى كل من آسيا ، وأفريقيا ، وحصل اختلاطهم بأهل البلاد بالمصاهرة والحلف ، والمجاورة ، والمشاركة ، وهم أمم ذات حضارات وثقافات ومفاهيم وتصورات حضارية ، من فرس ، وروم ، وقبط وسريان ، وبحكم الاختلاط والاحتكاك تفهم العرب ما لديهم ، ومنها المعلومات الجغرافية ، التى هم فى أمس الحاجة إليها فى تطلعاتهم المستقبلية ، وحاضرهم المتفتح لتطور سير الحياة فى الإدارة والقيادة والسياسة والسيادة ، واتصلت بالرواة والإخباريين والقصاص فرووها بدورهم ـ مؤخراً ـ للمؤلفين ، فسجلوها كحقائق بدون تحقيق أو تحرٍ أو تمحيص ، وأضيف إليها مادة جديدة هى فضائل البلدان ، كفضائل اليمن ، وما أورده ابن عبد الحكم فى كتاب (فتوح مصر) .

لم يمض قرن على سطوع شمس الإسلام حتى خفق علمه المظفر على أغلب أقطار آسيا وأفريقيا وقسم من أوروبا .

وبطبيعة الحال فإن إدارة تلك الامبراطورية المترامية الأطراف ، الشاسعة المساحة ، المختلفة الأجناس تتطلب المعرفة العلمية ، ومنها المعلومات الجغرافية ، الوصفية فى المرحلة الأولى ، والفلكية فى المرحلة اللاحقة .

لقد استولت الفيالق الإسلامية على العراق وما يليه من بلاد فارس ، واجتاحت سوريا سنة ١٦هـ ـ ٦٣٨م ، وبلاد ما بين النهرين سنة٦٤٠ م تقريبا ـ واستولت بعدها على ما تبقى من بلاد فارس . وإرمينية ، وكردستان ، وأذربيجان وما وراء النهر ، هذا فى المشرق .

أما بالنسبة إلى المغرب ، فقد فتحت مصر سنة٢٠ هـ ـ وسارت لفتح ليبيا ـ بعد ذلك ـ ولم يتوقف القائد التابعى البطل عقبة بن نافع إلا على شاطىء المحيط الأطلسى .

وفى سنة٥٤هـ استأنفت الجيوش الإسلامية نشاطها الحربى حتى أشرفت على سور الصين ومن الناحية الأخرى ، اجتاحت مقاطعة السند بعد ذلك بفترة على يد القائد البطل محمد بن القاسم الثقفى .

أما فى الميدان الغربى فقد تطلعت الجيوش الإسلامية إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط ، فغزا القائد البطل طارق بن زياد الأندلس ، وبعد أن وطد دعائم هذا الفتح العظيم، تقدمت الفيالق الإسلامية حتى توقفت على نهرى الرون والسين، وشعرت أوروبا

بما ينتظرها بعد ذلك ، فالتفت تحت قيادة شارل مرتل ، ودارت معركة بوتييه سنة ١١٤ هـ .

ومن الناحية الأخرى تراجعت الجيوش الإسلامية من تحت أسوار القسطنطينية ، فكان من جراء ذلك انحسار المد الإسلامى عن أوروبا من الشرق ومن الغرب ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى غير ما قدر لكان الآن تسمع أصوات الآذان تدوى فى أجواء أوروبا بأسرها .

إن علم الجغرافيا بدأ لدى اليونان شعراً فى إلياذة هوميروس ، كما بدأ لدى العرب أولاً ولدى المسلمين ثانياً ، بدأ شعراً يزخر بالعواطف ويجيش بالمشاعر ، وفى بعض ما أوردناه عن الشعر الجاهلى ما يغنى عن الإعادة .

أما فى الشعر الإسلامى فهذه نماذج غنية بالجغرافيا الوصفية لا فى الجزيرة العربية فقط بل فى البلاد التى فتحت : قال كعب بن الأشقر الأزدى :

تلبسوا لقراع الحرب بزّتها ... فأصبحوا من وراء الجَسْرِ قد عبروا
ساروا بألوية للمجد قد رُفِعَتْ ... وتحتهن ليوث فى الوغى وقُر
حتى إذا خلفوا (الأهواز) واجتمعوا ... بـ(رامهرمز) وافاهم بها الخَبَر
حتى اجتمعنا بـ(سابور الجنود) وقد ... شبّت لنا ولهم نارٌ لها شرر
عبوا جنودهم بالسفح إذ نزلوا ... بـ (كازرون) فما عزوا ولا ظفروا
بـ(دشت بارين) يوم الشعب إذ لحقت ... أسد بسفك دماء الناس قد زأروا
لما زواهم إلى (كرمان) وانصدعوا ... وقد تقاربت الآجال والقدر
تأتى علينا حزازات النفوس فما ... نبقى عليهم ، ولايبقون إن قدروا

ورغبة فى الاختصار ، فإن شعر (كثير) الذى هو من أغنى الشعر بذكر الأماكن ، وشعر (ذى الرمة) و (الشماخ) و (شبيب بن البرصاء) و (عدى بن الرقاع) و (كعب بن الأشقر) ما يغنى .

ومن شعر الرجز ، قصيدة أحمد بن عيسى الرداعى وهى من أهم الاراجيز التى وصفت طريق الحج ، والتى عدد فيها المراحل من أقاصى اليمن إلى مكة المكرمة ، ويكفى فى الإشادة بهذه الأرجوزة أن جميع الباحثين عن موقع سوق (عكاظ التاريخى) استرشدوا بها ، واستناروا بما ورد فيها إذ يقول :

ياهند لو أبصرت عن عمان ... قلائصا يوضعن من (جلد ان)

وجلدان موضع معروف باسمه إلى هذا التاريخ .

إلى أن يقول :

إذا انتحى القوم على الخوص العنق ... عن ذات (أصداء) سنامى (الفتق)
العيدهِيّاتْ العياهيم السحق ... وقد طوت (حنطوة) الخرق الأمق
حيث بريد الصخر عن غرب الطرق ... أقول للبارق وهنا إذ برق ..
لوامض البرق اليمانى المؤتلق ... أيسر من (نعمان) إذ شق الأفق

* * *

فقلت لما ثاب لى احتفاظى ... والقلب فيه شبه الشواظ
سل الهوى عن قلبك المغتاظ ... والعيس تطوى الأرض بالمظاظ
مشفقة من زاجر كظاظ ... مسهلة للخبت من (عكاظ)

* * *

فانجردت بالرفق العصائب ... عيدية مفعمة المناكب
تاركة (قُران) لـ (المناقب) ... بحيث خط الميل كف الكاتب
و(شربا) فى جنح الليل واقب ... بكل محض حسن الضرائب

ويقول الهمدانى فى شرح الثلاثة الأبيات الأخيرة و(قران) و(شرب) مكانان من أرض عكاظ ، وهذه المواضع من الجرداء ـ الصحراء ـ وشرق جميع هذه المواضع جبل (حضن) من المحجة على يوم وكسر ، ويسير الناس من (قران) وشرب ذات اليسار ، فيصعدون رأس السرة ، وتسمى (المناقب)وينزلون على (قرن) وهو ميقات أهل نجد .

ولأستاذنا الشيخ حمد الجاسر رسالة قيمة قديمة تعد أفضل تحقيق كتب عن موقع عكاظ التاريخى وخارطة للموقع وما حوله .

ويجىء ـ بعد الشعر ـ كمادة لعلم الجغرافيا الوصفية الرواة والإخباريون والقصاص ، كمصدر ثرٍّ لتفسير الشعر .

لقد تغيرت المفاهيم ـ فى القرن الثانى وأول القرن الثالث ـ لما طرأ من الحضارة فى الإسلام فأصبح مولدو الحواضر ليسوا فى مستوى العربى الذى يعيش فى البادية ، فى رعى أنعامه ، ضاربا فى أجواز الفلاة فى طلب الكلأ يمارس الغارة والرعى ، على علم وبصيرة بأرضه وما حولها لما تقتضيه ضرورة الانتجاع والحل والترحال ، وهو على معرفة بمسالكها

ودروبها ، وأعلامها ومجاهلها ، وموارد المياه ومواطن الرعى ، فقد يضل الطريق ، أو تعمى عليه السبيل ، فيسترشد بالبيت من الشعر ويستنير بمضمونه ، إلى معرفة ما حوله من جبل شامخ ، أو صحراء منداحة ، أو كثبان منهالة ، أو غدير رقراق .

فجاء الرواة الذين ضربوا فى أجواز الصحراء ، وطرقوا مضارب العرب ، لطلب رواية الشعر وتلقى الفصحى من أفواه الصرحاء ليقوموا بدور الشرح والتفسير .

ومن أشهر الرواة والإخباريين الذين تجمعت لديهم روافد الرواية والأخبار وقاموا بدور التأليف فى مادة تقويم البلدان ـ الجغرافيا الوصفية .

١ ـ أبو سعيد عبد الملك الأصمعى ـ وكتابه من مصادر معجم البلدان لياقوت .

٢ ـ أبو المنذر هشام بن محمد الكلبى ـ صاحب كتاب تقويم البلدان وقد أشار إليه ياقوت .

٣ ـ أبو عبيد السكونى .

٤ ـ أبو محمد الحسن بن أحمد ـ صاحب كتاب جزيرة العرب .

٥ ـ أبو الأشعث الكندى ـ صاحب رسالة جبال تهامة .

٦ ـ أبو محمد الغندجانى ـ صاحب كتاب مياه العرب .

٧ ـ أبو سعيد السيرافى .

٨ ـ محمد بن إدريس بن أبى حفصة ـ فى كتابه مناهل العرب .

٩ ـ محمد بن موسى الحازمى .

١٠ ـ أبو الفتح الإسكندرى .

هذا على سبيل الاختصار ليس إلا .

إن معلومات الأمم تبدأ بالشعر وتليه الرواية ثم يأتى دور تسجيل المعلومات وتدقيقها وتمحيصها ثم التحقيق والتسجيل الأولى ، وأخيراً دور الدراسة العلمية والتطبيق العملى الذى يليه دور الإبداع والابتكار ، وهكذا بدأ علم الجغرافيا لدى المسلمين بالشعر فالرواية ، وتطور بحكم ما يقتضيه التطور إلى علم الجغرافيا الفلكية .

سادسا : جهود الجغرافيين المسلمين

الجغرافيون المسلمون منحوا العالم أسنى العطاء وأجزل المكاسب العلمية، وأفرزت معارفهم ضياء خالداً ، وعلماً نافعا ، وخرائط رائدة ، ظلت نحو أربعمائه سنة ، هى القبس المشع ، والنور الهادى ، والمصدر الثر لعلماء الغرب .

بدأت الترجمة فى العهد الأموى ـ على نطاق محدود وجهود فردية ـ ورسمت بعض الخرائط الأولية وإن كانت لم تصل إلينا ، وهذا ابن الفقيه الهمذانى يذكر فى كتابه (البلدان)ص ٢٨٣ أنه رسمت للحجاج بن يوسف الثقفى خريطة لبلاد الدَّيلم ، ومن البديهى أنه لو لم يسبق إلى علم الحجاج مثل ذلك لما أمر به .

وترجم ابن المقفع المولود سنة١٠٦هـ أى قبل زوال الدولة الأموية بست وعشرين سنة ، كتاب كليلة ودمنة من لغته الفارسية ، كما ترجم من اليونانية كتاب تحليل القياس لأرسطو .

وقامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ ـ ٧٥٠ وبعد موت مؤسسها أبى العباس السفاح ، خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، الذى أمر برسم خريطة لقنوات البصرة ، كما أورد ذلك البلاذرى ص ٣٧١ فى كتابه فتوح البلدان .

أفلا يكون ـ وامبراطوريته المترامية الأطراف وهى أهم عليه من قنوات البصرة ـ قد أمر برسم خريطة أوخرائط لها .

وفى عهده بدأت الترجمة على المستوى الرسمى ، فقد بعث رسله إلى الهند وفارس والروم . فى طلب الحصول على كتب علوم الأوائل ، فوصله كتاب (السند هند) فأمر رائد علم الهيئة والجغرافيا فى عهده محمد بن إبراهيم الفزارى بنقله إلى العربية .

ولم يقف نشاط الفزارى عند الترجمة ، بل ألف كتاباً فى الفلك استنار به العرب ، وقد يكون هو أول كتاب فى الفلك بالعربية لمؤلف مسلم .

لم نجد فيما لدينا من المصادرَ تاريخ مولده ، وإنما نستنتج من تأريخ ابتداء قيامه بترجمة

الكتاب المذكور فى سنة ١٥٦ هـ ـ ٧٧١ م أنه قام به وهو فى كمال نضوجه العلمى ـ أى فى سن ٤٥ سنة ـ فإذا صدق استنتاجنا ، فيكون مولده سنة إحدى عشرة ومئة ، فى العهد الأموى ، فأظله العهد العباسى وعمره واحد وعشرون عاما أى إنه ولد ونشأ وتعلم وحفظ بعض اللغات فى العهد الأموى .

إن الفزارى مفخرة إسلامية ، وحسبه تنويها وإشادة قول الوزير يحيى بن خالد بن برمك : أربعة لم يدرك مثلهم .

١ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدى .

٢ ـ محمد بن إبراهيم الفزارى .

٣ ـ الإمام أبو حنيفة .

٤ ـ ابن المقفع .

ومن مؤلفات هذا النابغة المسلم الكتب الآتية .

١ ـ كتاب الزيج .

٢ ـ كتاب المقياس للزوال .

٣ ـ كتاب الأصطرلاب المسطح .

٤ ـ أرجوزة فى علم النجوم .

وقد أورد المؤرخ والجغرافى المسعودى فقرة من كتاب الزيج فى كتابه مروج الذهب تضمنت وصفاً للعالم المعروف آنذاك .

ثم أمر أبو جعفر المنصور بترجمة كتب بطلميوس التى وصلت إليه ، وهى الترجمة الأولى ، وقد مرت ترجمة علوم الأوائل بأكثر من دور .

لقد أقبل المسلمون فى الدور الأول على الترجمة وهم مدفوعون بزخم رغبة التطلع العارم ، ونهم العقل الراغب فى التفوق ، فترجموا فى عجلة الألفاظ، وأبقوا المصطلحات العلمية والمسميات الفنية بألفاظها الأعجمية مثل :

١ ـ الهيولى (المادة الأولى) .

٢ ـ الجغرافيا علم تقويم البلدان .

٣ ـ الاريتماطيقى (علم الحساب) .

٤ ـ الاسطرقوميا (علم النجوم) .

وغير ذلك .

أما فى الأدوار التالية وهو دور المراجعة والتروى والتدقيق والتمحيص ، فكانت الترجمة فى ترو وأناة والتعريب الصحيح الجاد ووضع أسماء عربية لتلك المصطلحات الأعجمية فاخترعوا لبعضها أسماء عربية بطريق المجاز ، أو الاشتقاق أو المصدر الصناعى ، فقالوا :

المادة الأولى	الماهية	الكيفية	الكروية
والجوهر الفرد	الشعوبية	الكمية	
العرض	الطائفية	الثقل	
الجزء	المذهبية	الحركة	

كما أضافوا لا النافية فقالوا : ألا إدارية ، الانهائية ، وغير ذلك ، بل ألفوا كتبا مستقلة للتعريف بالمصطلحات العلمية مثل كتاب (مفاتيح العلوم) .

إن العلماء المسلمين قاموا بدورهم البنَّاء فى تقدم الحضارة والعلوم وطوعوا لغتهم ، فاستوعبت حضارة من تقدمها ، ومدنية من سبقها ، فأغنوها بمفردات لم تكن معروفة فى موطنها ، من جذورها الأصيلة فأوجدوا الأسماء لكل المصطلحات الفنية والكلمات الحضارية .

وبعد فمن المعلوم أن العناية بالترجمة لعلوم الأوائل بلغت عنفوانها ، وأوج نشاطها فى عهد الخليفة المأمون ، منشىء دار الحكمة ، أول مؤسسة أكاديمية فى الإسلام .

إن الخليفة المأمون ملك من طراز فريد ، سعد - بحق - التفوق العلمى ، والنبوغ الفكرى فى ظل ملكه وهو الذى أمر بإجراء أول تجربة على الطبيعة ، وتطبيق عملى لدورة الأرض ، عندما اطلع فى بعض المصادر أنها أربعة وعشرون ألف ميل ، فأمر بنى موسى بن شاكر بأن يقوموا بالتجربة ، فساروا إلى صحراء سنجار ، وكانت التجربة المعروفة تاريخيا ، وحققوا مساحة الدرجة الواحدة ستة وستين ميلا وثلثى الميل .

ومن المعروف أن الأرض مقسمة إلى ثلاثمائة وستين درجة $\frac{٢}{٣}$ ٦٦×٣٦٠ = ٢٤٠٠٠

وفى عهد المأمون رسمت أول خريطة ، أو خرائط على مستوى العالم وعرفت بالخرائط المأمونية ، ولا غرو فدولة الإسلام فى عهد المأمون هى أكبر دولة فى عهدها ولها شبه سلطانها العالمى بالنسبة إلى غيرها .

لقد سبق فى جغرافية بطلميوس مصور للعالم فى عصره ، كما يشير ياقوت فى معجم البلدان إنه ، رسمت لأزدشير من الملوك الساسانيين خرائط للعالم ، وروى أحمد الطوسى أنه

رسمت كذلك لـ(قباذ) وإنما ريادة الجغرافيين المسلمين تفوق كل ماسبقها .

لم تكن تلك الجهود الجغرافية فى عهد المأمون إلا بداية رائدة لما بعدها ، ومن رجالها محمد بن موسى الخوارزمى صاحب كتاب صور الأرض وغيره مثل أبى جعفر الخازن الذى يشير صاحب الفهرست أنه أول واضع لهذا النوع من المصورات الجغرافية .

وجاء العالم الجغرافى الشهير أبو عبد الله محمد بن جابر البتانى المولود سنة خمس وثلاثين ومائتين وهو صاحب كتاب الزيج الصابى المشتمل على :

١ ـ خرائط لـ٩٤ بلدا .
٢ ـ جداول لأطوال وأعراض الأرض .
٣ ـ الأرصاد التى قام بها .
٤ ـ الآلات المستعملة فى زمانه للرصد .

لقد بنى أرصاده على ما قام به بنفسه فى مدينتى (الرقة) فى العراق و (أنطاكية) فى سوريا ، وحققها على كتاب الزيج الممتحن لأحمد بن عبد الله الحاسب من فلكيى وجغرافيى عصر المأمون ، وعلى كتاب بطلميوس من الترجمة السريانية .

ومن أعماله المهمة ـ أيضا ـ الأرصاد التى قام بها ابتداء من سنة٢٦٧ ـ ٣٧٠هـ لقياس ارتفاع الشمس فى الظهيرة عند المنقلبين الصيفى والشتوى ... وقد وجد قمة الزاوية ٣٥ ٢٣، ويقول الدكتور (إمام إبراهيم أحمد) أثبتت الحسابات الحديثة أن القيمة الصحيحة لاتختلف إلا بمقدار دقيقة . هذا مع مافى آلات الرصد القديمة من بدائية وقصور عن الآت الحديثة المتطورة .

لقد تعدت شهرة البتانى العالم الإسلامى إلى الغرب فهو يعد لديهم فى الدرجة الأول فى علم الفلك وقد أشاد به غير واحد منهم .
١ ـ نوه به (كاروجوى) فى كتابة (تاريخ الرياضيات) .
٢ ـ عده (لالاند) من عشرين فلكيا شهروا فى العالم .
٣ ـ نعته (سارتون) بأعظم فلكيى زمانه ومن أعظم علماء المسلمين فى فنه .

إن جهود الجغرافيين المسلمين فى القرنين الثالث والرابع ـ التاسع والعاشر الميلادى هى الغرة الشادخة والصفحة اللامعة فى سجل تاريخ الجغرافية .

لقد عاصر البتانى عالم من أبرز الجغرافيين المسلمين صاحب مدرسة رائدة لها تأثيرها فى طريقة رسم الخرائط فى عصرها ، وما بعد عصرها ، هو أحمد بن سهل المعروف بأبى زيد البلخى ، صاحب كتاب (صورالأقاليم) المشتمل على خرائطه المشهورة المشتملة على :

١ ـ مصورات ـ خرائط للعالم .

٢ ـ مصورات ـ خرائط للجزيرة العربية .

٣ ـ مصورات ـ خرائط للخليج العربى .

٤ ـ مصورات ـ خرائط لبحر الروم ـ البحر الأبيض المتوسط .

٥ ـ مصورات ـ خرائط للمغرب .

٦ ـ مصورات ـ خرائط لمصر .

٧ ـ مصورات ـ خرائط للشام ـ سوريا .

٨ ـ مصورات ـ خرائط أربع عشرة خريطة أخرى لأقطار من أواسط العالم الإسلامى وشرقه .

وقد اطلق المستشرق مللر (K. miller) فى كتابه (Mappae Arabicae) اسم أطلس الإسلام على تلك الخرائط .

وتلاه عبيدالله بن خرداذبه المتوفى سنة ٣٠٠ هـ ـ العالم الجغرافى (الجنتلمان) الذى جمع بين نشاط العالم وظرافة النديم ، فقد كان من ندماء الخليفة المعتمد العباسى ، وألف له كتبا فى الغناء والموسيقى ، والمنادمة ، والشراب ، والطعام ، ولكن شاءت الأقدار ألا يكون إلا جغرافيا من الطراز الأول ، فضاعت مع تلك المؤلفات ما عدا كتابه الخالد فى الجغرافيا الموسوم بـ (المسالك والممالك) ، وهو وإن كان عربى المنشأ واللغة ، فهو بحكم أصله الفارسى يتقن الفارسية ، ويجيد اليونانية ، نستدل على ذلك من قوله : فى مقدمة كتابه (المسالك والممالك) : لقد وجدت بطلميوس قد أبان الحدود وأوضح الحجة ، فى وصفها بلغته الأعجمية ، فنقلتها إلى اللغة الفصيحة لتقف عليها .

وكتابه المسالك الموجود والمطبوع هو مختصر لأصل كتابه الكبير الجليل ، المزين بالخرائط الملونة التى هى من التراث الخالد .

فهو يقول فى مقدمة الكتاب : لقد عملت كتابى هذا بصفة أشكال الأرض ، ومقدار

طولها والعرض ، ومحل البلدان والعامر والغامر منها فى جميع بلاد الإسلام ، بتفصيل مدنها ، وتقسيم ما انفرد بالأعمال المجموعة إليها .

لقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلا ، يحكى موضع تلك الأقاليم ، ثم ذكر ما يحيط بها من الأماكن والبقاع ، وما فى أضعافها من المدن والأصقاع ، ومالها من القوانين والارتفاع ـ الخراج .

وكتابه عرف فى الغرب ، وعنى به غير واحد من المستشرقين ، وأول من نشره منهم المستشرق (ابارببيه ده متيار) وترجمه (دى غوى) .

إن المسلم ليشعر بالفخر والاعتزاز ، وهو يجول بناظريه فى مآثر الجغرافيين المسلمين ، الذين بريق أسمائهم يخطف الأبصار ضياء ، وأثارهم العلمية تهز الأعطاف نشوة .

ومن هؤلاء الأعلام ثلاثة عاشوا فى القرن الرابع وهم :

١ ـ الإصطخرى .

٢ ـ ابن حوقل .

٣ ـ سهـراب .

فالأول هو إبراهيم بن محمد الإصطخرى ، صاحب كتاب (المسالك والممالك) فى الجغرافيا المستمل على الخرائط المعروفة قام برحلاته إلى بعض أجزاء الجزيرة العربية ، ومصر ، والشام ، والعراق ، وفارس وما حولها .

التقى بزميله العالم الجغرافى أبو القاسم محمد بن حوقل سنة٣٤٠ ـ ببغداد وعرض عليه خرائطه لمراجعتها .

كما أن المقدسى ـ وهو من أتباع مدرسة البلخى ـ ذكر أنه استعان بعدد من الخرائط ـ فى رسم خرائط كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ومنها خرائط الإصطخرى ، ثم أشاد بها قائلا إنها :

(تدنو من الحقيقة وتستحق التعويل عليها ، وإن كان فيها خلط وخطأ) .

وشهادة ابن حوقل والمقدسى تنفى تهمة المستشرق (دى غوى) بأن خرائط الإصطخرى ليست إلا نسخة من خرائط أبى زيد البلخى .

ويشرح لنا فى منهجه فى مقدمة الكتاب بقوله : ـ

١ ـ إنه أورد فى كتابه أقاليم الأرض وقصده منها مدن الإسلام ، ولم يقصد الأقاليم السبعة التى قسم الأرض إليها من تقدم قبله ومن فى عصره .

٢ ـ جعل لكل قطعة ـ جهة ـ مفردة مصوراً يحكى وضع ذلك الإقليم .

٣ ـ إن الغرض من تأليف كتابه وخرائطه ، هو تصوير تلك الأقاليم التى لم يذكرها أحد « علمه » ـ واعتقد أن فى قوله ما يجافى الحقيقة فقد سبقه البلخى وغيره .

٤ ـ إنه اتخذ لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط خارطة ـ صورة ـ إذا نظر إليها الناظر علم مكان ذلك الإقليم .

ومصور الإصطخرى للعالم مأخوذ عن المخطوط العربى الموجود بمبرة (فارتر) بـ (ليدن) تحت رقم ١٧٠٢ والمخطوط نسخ سنة ٥٨٩ هـ .

أما محمد بن حوقل ضريع الإصطخرى فهو أشهر من أن يعرف ، وهو من أهل (نصيبين) وكان مع علمه وفضله يشتغل بأعمال التجارة ، وصل بغداد للمرة الأولى ، ثم رحل عنها فى رحلة تجمع بين اشتغاله بالعلم وتكسبه من التجارة ، جال خلالها فى العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه .

وكأنه عاد إلى بغداد للمرة الثانية بعد رحلته الطويلة ، والتقى بالإصطخرى فيها وذلك فى سنة ٣٤٠ هـ ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ وعرض عليه الإصطخرى خرائطه لتصحيحها ومراجعتها ، وهذا يدل على ما لابن حوقل من المكانة العلمية ، ويظهر أنه بعد تلك الرحلة ألف كتابه المعروف (المسالك والممالك) المشتمل على الخرائط المشهورة ، ويظهر أن اسم (المسالك والممالك) قد استهوى غير واحد من علماء الجغرافيا ، فسمى الكثير منهم مؤلفاتهم بهذا الاسم ومنهم :

١ ـ أبو العباس جعفر بن أحمد المروزى المتوفى سنة٣٦٨هـ ويرى البعض أنه أقدم كتاب سمى بهذا الاسم ، والبعض يرجح أن كتاب بن خرداذبه أقدم منه .

٢ ـ عبيد الله بن خرداذبه وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

٣ ـ أحمد بن محمد السرخسى وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

٤ ـ الوزير أبو عبيد الله الجيهانى وكتابه موسوم بالاسم نفسه وهذا الكتاب فى حكم المفقود .

٥ ـ إبراهيم بن محمد الإصطخرى وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

٦ ـ محمد بن حوقل وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

٧ ـ المهلبى وكتابه موسوم بالاسم نفسه . لم يبق منه حسب علمى إلا مقتطفات فى البلدان وفى تقويم البلدان لأبى الفدا .

٨ ـ محمد بن يوسف الوراق وكتابه موسوم بالاسم نفسه المتوفى سنة٣٤٠هـ

٩ ـ البكرى أبوعبيد وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

١٠ ـ أبو محمد الحسن الهمدانى وكتابه موسوم بالاسم نفسه ذكر ذلك (القفطى) كما ذكره (الصفدى) .

١١ ـ أبو عبد الله الإدريسى وكتابه موسوم بالاسم نفسه ولم يبق من هذا الكتاب إلا مختصر فى مكتبة « أوغلى » باستنبول واسمه الكامل (روض الأنس ونزهة النفس فى المسالك والممالك) .

وقد يكون هناك كتب غيرها سميت بهذا الاسم ولم تصل إلى علمى . ويذكر أن فى المسالك والممالك لابن حوقل معلومات ذات قيمة وبالأخص عن أفريقيا والأندلس ، وواضحة فى خرائطه المتقنة .

ومن أبرز جغرافيى القرن الرابع أبو محمد الحسن بن أحمد الهمدانى صاحب كتاب صفة جزيرة العرب وغيره . وكتاب صفة جزيرة العرب يعد من أهم ما ألف عن الجزيرة العربية ، وكل باحث فى القديم أو الحديث يحتاج إلى هذا الكتاب القيم ، فقد مسح مسحاً جغرافيا ، واجتماعيا الجزيرة العربية ، وجاب أكثرها بنفسه .

ويقول عنه المستشرق (أغناطيوس كراتشكوفسكى) : لم يكن الهمدانى جغرافيا فحسب بل وخبيرا كبيرا بأنساب العرب ، وتاريخ الجزيرة ، خاصة أثارها القديمة ، ومما يدعو إلى الدهشة حقا أنه استطاع فك رموز الكتابة القديمة العربية فى جنوب الجزيرة .

وفى منتصف القرن الرابع عاش الجغرافى الفلكى المعروف باسم (سهراب) صاحب كتاب (صور الأقاليم) ويظهر من إسمه أنه مسلم من أهل فارس، وقد طبع كتابه .B. A. H) (Dmsik والكتاب من حيث معلوماته الجغرافية الإسلامية يشتمل على فوائد ذات قيمة علمية ، ومن حيث تبويبه وترتيبه فقد سار على طريقة كتاب وخرائط الخوارزمى ، واهتمام ذلك المستشرق به وطبعه يعطى فكرة عن قيمة الكتاب الجغرافية .

ولم يقف النشاط على العلماء المتفرغين ، بل شارك فيه وزير عالم من وزراء الدولة السامانية مع تبعته بمهام الوزارة وشئون الدولة ، هو الوزير أبو عبد الله الجيهانى ، فألف كتابه ـ الذى سبقت الإشارة إليه باسم (المسالك والممالك) ورسم خرائطه بعد ما قسم الأرض إلى عشرين جزءا ، وجعل كتابه شرحا وتبيانا لتلك الخرائط ، المصورة لأشكال الأرض ، بل ولمواقع النجوم بالنسبة إلى البلدان ، وهذا الكتاب هو مصدر مهم لكثير من المؤلفين ومنهم المقدسى . الذى يخالف من قال بتقسيمه الأرض إلى عشرين جزءا ، ويقول : بل جعل العالم سبعة أقاليم ، وجعل لكل إقليم كوكبا .

ومن عظماء الجغرافيين المسلمين أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسى عاش فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، وشد ما يعجبنى فيه مع مجهوده العلمى الجغرافى الكبير التزامه ـ كمسلم ـ بالخلق الإسلامى الرفيع ، فهو بعد أن يوضح لنا منهجه فى رحلته الطويلة وجمعه المعلومات واتصالاته بالناس فى كل إقليم دخله وبلد وصلها دارسا منقبا مسجلا محصيا بما لم يسبقه أحد قبله يقول : مع ذوق الهواء ، ووزن الماء ... وترك المعصية ولزوم النصح للمسلمين ، والمراقبة لله والخشية منه ، بعدما رغبت النفس فى الأجر وخوفتها من الإثم .الخ .

وهو جال وجاب البلاد الإسلامية وجزيرة العرب ، وأورد عنها معلومات مفيدة ، وبالأخص عن جنوبها وكعادته فى التقصى ، يورد المذاهب السائدة والعملات المتداولة ، والموازين والمكاييل واللباس .

كما يفيدنا عن المكتبات العامة والخاصة فى بعض مدن الإسلام ، والخرائط الموجوده بها مثل :

١ ـ مكتبة الصاحب بن عباد ومن محتوياتها كتاب أبى زيد البلخى بأشكال الأرض وصورها .

٢ ـ مكتبة عضد الدولة بنيسابور ومن محتوياتها كتاب أبى زيد البلخى بأشكال الأرض وصورها وغيره .

وغيـــر ذلك .

ويورد فى كتابه دراسة عن الجغرافيا الفلكية ، ويشير إلى المصادر التى استعان بها ، وإن كان يتحامل وينتقد أكثرها .

كما يشير إلى مصادره من الخرائط التى استعان بها فى رسم خرائطه فيقول : وأما الأشكال التى مثلناها فقد بذلنا فيها جهدنا حتى صحت بعد تأمل عدة من الصور منها :

١ ـ صورة ـ خارطة ـ وجدتها بخزانة ملك المشرق على كاغدة مصورة مثال مربع .
٢ ـ صورة ـ خارطة ـ على كراسة عند أبى القاسم الأنماطى بنيسابور ، مربعة أيضا .
٣ ـ صورة ـ خارطة ـ لإبراهيم الفارسى .
٤ ـ صورة ـ خارطة ـ لشيخ ب(سرخس) .

كما يورد إشارة فى مقدمته ، يفهم منها أنه انتهى من كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) سنة٣٧٥هـ

ويفيدنا أنه قسم الأرض إلى أربعة عشر إقليما ، وأنه اقتصر على ممالك الإسلام ، وأفرز أقاليم العرب عن أقاليم العجم،وفصل كل إقليم بمصور خارطة توضح أمصاره ، وقصباته ، ومدنه ، وخطط إليها الطرق ، كمارسم خرائطه بالألوان على الوجه الآتى : ـ

١ ـ الطرق باللون الأحمر .
٢ ـ البحار = الأخضر .
٣ ـ الأنهار = الأزرق
٤ ـ الرمال = الذهبى .
٥ ـ الجبال = الأغبر .

وبلغ ما قطعه فى رحلته بحرا ألفى فرسخ ، وأنه دار على الجزيرة العربية من القلزم إلى عبادان .

والمقدسى من كبار مشاهير الجغرافيين الفلكيين الذين عرفهم الغرب وأشاد بأعمالهم :

١ ـ عده المستشرق (اشبرنجر) أعظم الجغرافيين فى كل العصور .

٢ ـ قال سبرنغر(Sprenger) لم يتجول سائح فى البلاد كما تجول المقدسى ، ولم يحسن ترتيب عمله أحد مثله .

٣ ـ وقال المستشرق (ميستر Cild Meister) امتاز المقدسى عن سائر علماء البلدان بكثرة ملاحظاته وسعة اطلاعه .

ومن عظماء الجغرافيين المسلمين فى القرن الرابع أبو الريحان البيرونى المولود سنة ٣٦٣ - صاحب كتب (التفهيم) المشتمل فى مخطوطاته الخمس ، مصوراً - خارطة - مستديرة لمواضع البحار . و (القانون المسعودى) والذى وإن كان من كتب الفلك ، فإنه يحتوى على بعض المعلومات الجغرافية القيمة ، و (الآثار الباقية) الذى أورد به بعض الطرق الهندسية لمساقط مصورات السماء والأرض .

لقد قضى البيرونى عمره فى الرحلات العلمية حتى نعت فى وطنه بالغريب ، وبعد مضى سبع وثلاثين سنة فى الأسفار عاد إلى وطنه . ثم استأنف السير فى ركب الملك المسعود إلى الهند . وكان يتقن اللغات الآتية .

١ - العربية .

٢ - الخوارزمية .

٣ - الفارسية .

٤ - الهندية .

٥ - السريانية .

٦ - اليونانية .

فالبيرونى مفخرة من مفاخر علماء المسلمين .

وعلى بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الفلكى ، والجغرافى المعروف صاحب كتاب الزيج الحاكمى المشتمل على أربعة مجلدات ، صحح به أغلاط من سبقه من مصنفى الأزياج . وقد ذكر فى زيجه خطوط الطول والعرض وفق الأقاليم السبعة .
ويقول صاحب (حضارة العرب) وضع ابن يونس فى القاهرة الزيج الحاكمى ، فأنسى كل زيج قبله فى العالم حتى عنى به فلكيو الصين فذكره أحدهم المدعو (كوشيوكينغ سو) ١٢٨٠ م .
وترجم أستاذ العربية فى كلية فرنسا المسيو (كوسان) سنة ١٨٠٤ بعض فصول الزيج الحاكمى إلى الفرنسية ولابن يونس عدد من المؤلفات القيمة غير كتابه الزيج الحاكمى .
ومن مشاهير الجغرافيين المسلمين أبو عبدالله محمد الإدريسى المتوفى سنة٥٦٠هـ ولد فى مدينة سبته ، وتلقى تعليمه فى جامعة قرطبة بالأندلس ، وكان خدن أسفار وجواب آفاق ، حتى استقر فى بلاط ملك صقلية روجرالثانى ، وهناك تفرغ لعمله الكبير المشتمل على واحد وسبعين مصورا ، ونقش خريطته المستديرة على دائرة من الفضة ، وألف كتابه المشهور (نزهة

المشتاق) ليكون بمثابة الشرح والتوضيح لخرائطه الرائدة (التى ظلت مرجع جغرافيى الغرب زهاء ثلاثمائة سنة) ، التى قضى مدة طائلة فى إعدادها ، وهى أول خريطة للعالم قريبة من أصول علم الجغرافيا وتخطيطها الفنى بالنسبة إلى عصره .

ومن الجهود المبرورة والآثار العلمية المشهورة فى علم الجغرافيا كتاب (ابن سعيد على بن موسى بن عبدالملك بن محمد بن سعيد الأندلسى المولود سنة٦١٠هـ فى قلعة يحصب قرب غرناطة ، المسمى (جغرافيا الأقاليم السبعة) وهو من طراز كتاب الإدريسى مقسم إلى سبعة أقاليم ، وكل إقليم إلى عشرة أجزاء ، ووضح خطوط الطول والعرض مما يضفى على الكتاب أهمية كبيرة ، وبه تفصيلات عن جنوب الجزيرة العربية ومدنها ـ وقواعدها ، وكذا حقائق جديدة بالنسبة إلى عصره عن أفريقيا استفادها من رحلة ابن فاطمة الذى جاب شواطىء أفريقيا وغير ذلك ، ويوجد من الكتاب جزء فى مكتبة باريس تحت رقم ٢٢٣٤ ، وفى المتحف البريطانى القسم الشرقى تحت رقم ١٥٢٤ .

وذكر الزركلى فى الأعلام جـ ٥ص ١٧٩ فى ترجمته ، مؤلفاته ومنها فى الجغرافيا :

١ ـ وصف الكون .

٢ ـ بساط الأرض .

وكلاهما مخطوط .

ويأتى كتاب (عجائب المخلوقات) للقزوينى المتوفى سنة ٦٨٢ هـ ـ ضمن المجهودات الجغرافية الكبيرة ، وإن كان به حقائق جغرافية ومصور للعالم فإنه يصنف فى قسم الجغرافيا الطبيعية ، أو التاريخ الطبيعى .

لقد أورد فى هذا الكتاب معلومات قيمة لأرقى ما وصل إليه العلم فى عصره ، بل ومنها مايتجاوز عصره إلى وقتنا الحاضر .

تكلم عن السماء ووصف الكواكب والنجوم ، والشهب ، والأبراج وحركاتها ، ومداراتها وما يترتب على ذلك ، من فصول السنة ، والشهور والأيام ، والأنواء والعواصف . ووصف الأرض وما عليها ، ونشوءها وتكوينها ، وطبيعتها ، والغلاف الهوائى والتخلخل الجوى ،

وما ينتج عنه ، واليابس من الأرض ، والمغمور بماء البحر ، وما يحيط بها من البحار ، واختلاف آراء الأقدمين ومن بعدهم فى كرويتها ، ودورانها وتكلم عن الجاذبية .

وعن الحيوان ، والجماد ، والمعادن ، والتوالد ، والزلزال ، والأنهار ، والأمطار ، والرعد والبرق والظواهر الطبيعية ، وأقاليم الأرض ، وخواص البلاد ، وتاثير البلاد فى السكان ، والحيوان ، وفى النبات والحيوان ، وحاجة الإنسان الاجتماعية إلى إحداث المدن والقرى .

وخرائطه أقرب إلى الإقليمية منها إلى الخرائط العالمية ، وفى ما أورده عن ديار العرب معلومات شبه مفصلة . ولا تخلو من الدقة أحيانا ، وبعض الأساطير .

وجاء أبو الفداء بكتابه القيم تقويم البلدان ، والمحتوى على جداول الطول والعرض ، وأضاف معلومات عن غير الممالك الإسلامية ، وقسم العالم إلى ثمانية وعشرين إقليما .
ولقد عرف الغرب كتابه القيم لأول مرة عن طريق المستشرقين (جوليوس) Gol!us و (ريسكه) Reiske والكتاب مطبوع متداول .

وأبو الفداء هو أمير حماة من الأسرة الأيوبية ولد سنة٦٧٢هـ ـ وتوفى سنة٧٣٢هـ بمدينة حماة بسوريا .. ولاننسى كتاب معجم البلدان الذى جمع بين الجغرافيا الوصفية والفلكية فهو أضخم وأوفى كتاب .

وتلاه (ابن الوردى) بكتابه المعروف (خريدة العجائب والغرائب) فى تقويم البلدان ـ الجغرافيا ـ وبه مصور للعالم .

وقد ترجم بعض المستشرقين جملا منه ، وتوفى ابن الوردى سنة٨٦١هـ ـ ومن بعد ذلك التاريخ ركد نشاط التأليف الجغرافى فى العالم العربى ، وإن كان استأنف بعض نشاطه فى فارس وتركيا المسلمتين .

إن جهود الجغرافيين المسلمين أعظم من أن تحيط بها محاضرة ، وإنصافا للحقيقة نورد فى ختام هذه المحاضرة بعض ماقاله المنصفون من علماء الغرب .

قال غستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب تحت عنوان (التقدم الذى حققه العرب فى الجغرافيا) . (كان من نتائج ريادة العرب ومعارفهم الفلكية ، أن اتفق لعلم الجغرافيا تقدم

مهم ، ولاغرو فالعرب الذين اتخذوا فى البداءة علماء اليونان ، ولاسيما بطليموس أدلاءهم فى علم الجغرافيا ، لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم) .

كانت مواقع المدن الكثيرة التى عينها بطليموس تعييناً جغرافيا غير مطابقة للحقيقة تماما ، وبلغ مقدر غلطه فى تعيين البحر المتوسط وحده أربعمائة فرسخ .

ويكفى أن نقابل بين الأمكنة التى عينها الأغارقة والأمكنة التى عينها العرب ليظهر لنا مقدار التقدم الذى تم على يد العرب ، فهده المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذى حققه العرب يقرب من الصحة بما لايزيد على بضع دقائق ، وأن الخطأ لدى الأغارقة فيه بلغ درجات كثيرة .

وكان تعيين الطول صعباً على العرب وذلك لما يعوزهم فى ذلك الحين من مقياس (كروتومتر) ومن تقاويم مضبوطة للقمر ، ومغالطهم أظهر من ذلك وإن لم تزد على درجتين إلا نادرا ، أى وإن كانت دون غلط الأغارقة بمراحل .

حقا إن أغاليط اليونان كانت فى تعيين الطول فاحشة فى بعض الأحيان ، ومنها غلط بطليموس ، الذى اتخذ الإسكندرية مبدأ للطول ، فى طول طنجة نحو ١٨درجة فجعله ثلاثاً وخمسين درجة وثلاثين دقيقة بدلا من خمس وثلاثين درجة وإحدى وأربعين دقيقة .

ومنها إن جعل بطليموس فى تقويمه طول المحور الكبير للبحر المتوسط الممتد من طنجة إلى طرابلس الشام تسع عشرة درجة زيادة عن الحقيقة ، أى ما يعدل أربعمائه فرسخ تقريبا ، مع أن غلط العرب فيه أقل من درجة واحدة .

وكتب العرب التى انتهت إلينا فى علم الجغرافيا مهمة للغاية ، وكانت أساساً لدراسة هذا العلم فى أوروبا قرونا كثيرة .

وخريطة الإدريسى التى اشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة لم يكتشفها الأوروبيون إلا فى العصر الحاضر ، تثبت أن معارف العرب فى جغرافية أفريقيا أعظم مما ظن زمنا طويلا .

ويحتاج إحصاء أهم جغرافيى العرب وما ألفوا من كتب إلى بيان طويل ، فقد ذكر

أبو الفداء وحده أسماء ستين عالماً جغرافيا من الذين ظهروا قبله .

والعرب هم الذين نشروا كتباً جغرافية قامت مقام الكتب التى ألفت قبلها ، فاقتصرت أمم الغرب على استنساخها قرونا كثيرة .

ويقول صاحب دائرة معارف (لاروس) إذا أراد القارىء أن يجد عجيبة من العجائب الجغرافية فلا يبحثن عنها فى أوروبا التى صارت آنذاك بربرية ، ولكن فليبحث عنها عند العرب ، كان الخلفاء كلما أمعنوا فى الفتوح أمروا برسم الأرض التى يفتحونها .

الحــواشى

(١) كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص صف لى مِصرٌ فأجابه : مصر ـ يا أمير المؤمنين ـ تربة غبراء وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها شهر ، يخط وسطها نهر مبارك الروحات ميمون الغدوات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرية الشمس والقمر ، له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا أصلح عجاجه وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصول أهل القرى إلى بعضها إلا فى خفاف القوارب ، وصغار المراكب ، فإذا تكاملت زيادته أنكفأ على عقبيه كأول ما بدأ فى شدته ، وطمى فى حدته ، عند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون الأرض ، ويرجون الثمر من الرب .

وعندما أراد عمرو بن العاص غزو البحر ، استأذن عمر ، فكتب إليه صف البحر ، فكتب إليه يا أمير المؤمنين البحر خلق كبير يركبه خلق صغير ، فراكبه دود على عود ، إن هاج أزاغ العقول ، وإن ركد أمض القلوب داخله مفقود ، وخارجه مولود .

(٢) الزيج اسم يطلق على الجداول الفلكية والجداول الجغرافية ، الخاصة بخطوط الطول والعرض .

المصــادر

اسم المؤلــف	اســم الكتــاب
١ ـ ابن خرداذبة	المسالك والممالــك
٢ ـ المقدســى	أحسن التقاسيم
٣ ـ أبو الريحان البيرونى	الآثار الباقية
٤ ـ ابن الفقية الهمذانــى	البلـــدان .
٥ ـ الحسن بن أحمد الهمدانى	صفة جزيرة العرب
٦ ـ ياقـوت الحمـوى	معجـم البلـدان
٧ ـ جــواد علـــى	تاريخ العرب قبل الإسلام
٨ ـ ___________	تراث العالــم
٩ ـ لـويـس معلــوف	المنجـــد
١٠ ـ أحمـد أميـن	ضحـى الإسـلام
١١ ـ جـرجـى زيـدان	تاريخ التمدن الإسلامــى
١٢ ـ دائرة معـارف وجـدى	فـريـد وجـدى
١٣ ـ ___________	المعـارفالإسـلامية
١٤ ـ الفهرست لابن النديـم	ابن النديم
١٥ ـ المسعــودى	مروج الذهب
١٦ ـ خير الدين الزركلى	الأعـــلام
١٧ ـ الخـــوارزمى	مفاتيـح العلـوم
١٨ ـ قــدرى قلعجــى	اكتشاف جزيـرة العـرب
١٩ ـ ترجمة قسـم الترجمـة بوزارة التـربية بمصر	تاريخ العالــم
٢٠ ـ البــلاذرى	فتـوح البلــدان

المصـــادر

اسم المؤلـــف	اســـم الكتـــاب
٢١ ـ جستاف لوبـون	حضارة العرب
٢٢ ـ بروكلمـــان	تاريخ الشعوب الإسلامية
٢٣ ـ ______	مجلة الفيصــل
٢٤ ـ ______	أوراق خاصة من جمع صاحب المحاضرة .
٢٥ ـ ابن خلكـان	وفيات الأعيـان
٢٦ ـ الطـــبرى	تاريـخ الطـبرى .

○○○